

10

.....

كيف نساعد الأطفال المستعجلين

.....

مجتمعنا مجتمع مستعجل يبحث
الخطو مستعجلاً. ونحن نتطلع باستمرار إلى طرق يمكننا من
أداء الأمور بشكل أسرع وأنجح. لدينا السوبر ماركت لنتسوق
بسرعة ومطاعم الوجبات السريعة لنأكل بسرعة. نبني الطرق
الدولية لننتقل بسرعة ونقتني الأدوات المنزلية لنؤدي الأعمال
المنزلية بشكل أسرع. وما ثورة المعلوماتية القائمة إلا لتسريع
الأعمال المكتبية بشكل أساسي. حتى أننا نسرع رياضتنا بواسطة
عربة الغولف وقاذفة الكرات. كما يعمل المصممون جاهدين
لزيادة سرعة سفن النزهة، سواء كانت تعمل بالمحرك أم
بالشرع. إن مجتمعنا ينظمه الوقت ويوجهه. ونحن ننقل هذه
القيم إلى أطفالنا. وإذا سألت عن أول هدية غالية وذات نفع
نقدمها إلى الطفل نجد أنها الساعة. إننا نستعجل أطفالنا لأننا
نستعجل أنفسنا.

وعلى الرغم مما للإلحاح على أداء الأشياء بشكل أسرع

وأكثر كفاءة من مزايا إيجابية - منها أننا أصبحنا المجتمع الأكثر إبداعاً على وجه الأرض - إلا أنه لا يخلو من عثرات، فهو يولد نفاذ الصبر والتلف المتململ. وعلى الرغم من كل ما ننعم به من براعة تقنية ومظاهر ربيعة الثقافة إلا أننا شعب لا يستطيع الانتظار ولا يرغب فيه. ولشدة حرصنا على الدقة واستخدام وقتنا على أحسن وجه فإننا نكفهر عندما نجبر على الاسترخاء وانتظار دورنا. إننا ننتقل من خط إلى آخر في المصرف أو في مخزن البقالة إذا تصورنا أن الكوة الأخرى أسرع، ونخفض ما نعطيه للنادل إذا كانت الخدمة بطيئة، وعندما نسافر فإننا قد ندفع، طائعين، أجراً عالياً إذا وصلنا إلى وجهتنا بأسرع ما يمكن - سواء كنا مسافرين إلى الخارج أم إلى مدينة أخرى أو لزيارة أصدقاء عبر المدينة. ولا يمكن فهم ظاهرة الأطفال المستعجلين والتطلع إلى مساعداتهم إلا ضمن إطار مجتمع يتحرق لأداء أي عمل بشكل أسرع وأفضل ولا يطيق الانتظار والتراخي.

ماذا يمكننا أن نفعل لمساعد الأطفال الذين يدفعون ليكبروا بسرعة ويجدون في ذلك شدة جامحة؟ قبل كل شيء، من الأهمية بمكان أن ندرك أننا لا نستطيع أن نغير الاندفاع الأساسي للمجتمع الأمريكي الذي يرى في العجلة طريقة حياة مقبولة ومحترمة. كما لا نستطيع أن نحد من نفاذ الصبر الذي يلازم العجلة. وعندما تعكس العجلة قيماً ثقافية كالحفاظ على المواعيد فإن استعجال الأطفال للحفاظ على المواعيد أمر مبرر

اجتماعياً. لكن إساءة استعمال الاستعجال يؤدي الأطفال. وعندما يخدم الاستعجال حاجات والدية أو مؤسساتية على حساب الأطفال دون أن يعطي قيماً اجتماعية معوضة، تكون النتيجة سلبية بالنسبة للأطفال.

يعتبر سوء استخدام الاستعجال خرقاً للعقود. وينعكس خرق العقود على الأطفال استغلالاً وشدة لأن العقود الضمنية بين الآباء والأبناء هي أساس إحساس الأطفال بالثقة، وهي نوع من المقياس الذي يحكم التفاعلات الاجتماعية للأطفال. وإذا تزعزع إحساس الطفل بالثقة الأساسية فإن الإحساس أن العالم مكان آمن ومعتطاء، والإحساس أن الناس طيبون ومحبون، يتزعزع أيضاً، وكذلك إحساس الطفل بنفسه وثقته بعلاقاته بالآخرين.

ويمكننا تحديد نوعين مختلفين من خرق العقود والاستغلال. الأول نوعي ويمكن تسميته استعجالاً روزنامياً. ويحدث كلما طلبنا من الطفل إدراكاً وراء حدود فهمه، أو اتخاذ قرار أكبر من قدرته على اتخاذ قرار، أو التصرف بعزم وتصميم قبل أن تصبح لديه الرغبة والعزم على التصرف. ولكن يمكن استعجال الأطفال كمياً أيضاً، ويمكن تسمية ذلك الاستعجال استعجال ساعي. ونمارس الاستعجال الساعي كلما أجبرنا الطفل على استهلاك مصادر طاقته بمطالبته بأشياء كثيرة يؤديها خلال وقت قصير.

وقد مارس كل منا الاستعجال الروزنامي والساعي في وقت ما. فالطفل الأول، مثلاً، يخضع دائماً لاستعجال روزنامي لأن أبويه لا عهد لهما بالأطفال، ولهذا كثيراً ما يكون الطفل الأول طفلاً مستعجلاً - دؤوباً على العمل، ومنافساً ونشطاً. كما أننا جميعاً نمارس الاستعجال الساعي عندما نصطحب الأطفال الصغار في رحلات طويلة. يستطيع الأطفال التكيف مع تجاوزات العقود هذه لأنها لا تنبي عن رفض أو نقص في الحب والاهتمام.

ولكن عندما يحدث الاستعجال الروزنامي أو الساعي لأحد الوالدين أو كليهما يقدم حاجاته على حاجات الطفل، فإن الاستعجال قد يتسبب في أذى حقيقي. فالتعاقد يبنى على التبادلية، حيث حاجات الآباء والأبناء متوازنة بشكل أو بآخر. وعندما تتقدم الحاجة الأبوية بشكل دائم واعتيادي على حاجة الطفل، يصبح الاستعجال الروزنامي والساعي مصدر شدة للأطفال، على الرغم من أننا أحياناً إذ نقدم حاجاتنا على حاجات الطفل فإن ذلك يكون بشكل غير متعمد ولا مقصود. وهناك طريقة يمكننا من مراقبة ما إذا كنا نستعجل أطفالنا بشكل غير معقول وذلك بأن نراجع بين وقت وآخر علاقاتنا التعاقدية بإعداد قوائم، كالقائمة المدرجة أدناه، تبين ترتيباتنا التعاقدية الحالية.

استمارة تقييم عقد

الطفل

العمر

الجنس

العقد الأول

الإنجازات المتوقعة

الدعم المقدم

العقد الثاني

المسؤوليات المتوقعة

الحريات المقدمة

العقد الثالث

الوفاء المتوقع

الالتزام المقدم

عند ملء هذه الاستمارات يجب أن يكون هناك توازن معقول بين الإنجازات والدعم، وبين المسؤوليات والحريات، وبين الوفاء والالتزام. إذا استطعت بسهولة تحديد ما تتوقعه من إنجاز ومسؤولية ووفاء ولكن يصعب أن تفند ما تقدمه على سبيل الدعم والحرية والالتزام، فالأرجح أنك ترتكب بعض المخالفات التعاقدية وربما يترتب عليك أن تضيف بعض الأشياء إلى الجانب الخاص بك من العقد. أما فيما يتعلق بالاستعجال الروزنامي فمن المفيد أن تقارن قائمة توقعاتك مع أنواع القدرات التي لدى الأطفال (كما هي مفصلة في الفصل السادس). إذا كانت التوقعات غير معقولة بالنسبة للأطفال في تلك المرحلة، فربما كان هناك بعض الاستعجال التطوري، مما يستدعي أن تراجع توقعاتك. وإذا نظرت إلى ورقة الحساب تستطيع أن تقرر ما إذا كان هناك أي سوء استخدام للاستعجال.

إذا كنا نطلب الكثير ونمارس الاستعجال الروزنامي أو الساعي، يترتب علينا إما أن نقلص مطالبنا أو أن نزيد دعمنا. وهذه طريقة موضوعية لمساعدة الأطفال على التعامل مع الاستعجال بمعنى التعامل مع التوقعات الحقيقية التي نعولها على أطفالنا، وغالباً ما لا نعبر عنها بالكلام، ومع كمية ونوع الدعم الذي نحن على استعداد لتقديمه.

لكن الاستعجال، مثل أي مسبب للشدة، له بعد موضوعي. رؤية الأطفال للاستعجال هي التي تقرر آثاره مثلها مثل حقيقة الاستعجال نفسه. فنحن نعرف مثلاً أن الأطفال في عمر الثامنة وما دون يميلون إلى «الأفكار السحرية» - وغالباً ما يعتقدون أن أمنياتهم ومشاعرهم وتصرفاتهم لها علاقة سببية بتصرفات آبائهم. فكثير من الناشئين مثلاً يشعرون أنهم قد فعلوا شيئاً (كأن يهزأوا من لحية والدهم) أو شعروا بشيء (كغضبهم على والدهم لأنه لم يشتري لهم لعبة على شكل مسدس) أدى إلى مغادرة والدهم البيت. كما أنهم قد يحرمون أنفسهم من متعة ما (كأكل الحلوى) أو يضحون بدمية أثيرة (بإعطائها لشخص ما أو كسرها) لعل هذه الأعمال السحرية تعيد الوالد إلى البيت.

رؤية الأطفال للاستعجال إذن تعتمد بعض الشيء على مستوى تطورهم العقلي، كما تعتمد أيضاً على مزاجهم

وتجاربهم السابقة وذكائهم وأمور أخرى. ونحن كأباء أو مدرسين لابد لنا من مراقبة الأطفال في مراحل تطورهم الرئيسية الأربع وكيف يرون الاستعجال وما يمكننا أن نفعله لنجعل هذه الرؤية أقل مدعاة للشدة. ولكن من الأهمية بمكان أن نتخلى قليلاً عن فهمنا الراشد ونعترف أن هناك أكثر من طريقة واحدة لرؤية الحقيقة.

ويميل الأطفال الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين سنتين وثمانية سنوات إلى النظر إلى الاستعجال كنوع من الرفض، ودليل على أن والديهم لا يهتمون بهم حقاً. فالأطفال أذكاء جداً عاطفياً في هذا الخصوص ويسمعون ما يريدون مما هو جزء من الحقيقة. ويمكن القول إن استعجال الأطفال من عناية شخص إلى آخر كل يوم، أو استعجال إنجاز الأكاديمي، أو دفعه نحو اتخاذ قرارات قبل أن يكون مستعداً لذلك إنما هو بشكل أو بآخر نوع من الرفض. إنه رفض للأطفال كما يرون أنفسهم، وما الذي يستطيعون التكيف معه وأداءه. يجد الأطفال في هذا الرفض تهديداً كبيراً، وكثيراً ما تظهر عليهم دلائل الشدة نتيجة له.

يرى الأطفال في هذه المرحلة في الجزء كلاً. إنهم يشعرون بقليل من الرفض في والديهم ويرون فيه موقفاً أبوياً كاملاً. الأطفال الصغار ليسوا تناسبيين وإنما هم يفكرون ضمن أطر مطلقة. (الأدب الموجه للأطفال الصغار مفعم بشخصيات ذات أبعاد أحادية كالساحرة والغول والجنية والأمير). لذلك فإننا

حتى عندما نضطر إلى ممارسة بعض الاستعجال الضروري، فإن أطفالنا الصغار قد يرون في بعض موقفنا كلاً ويرون في حينا الحقيقي جداً وحرصنا عليهم شيئاً من الرفض من خلال فهمهم العام للاتفاضلي.

هذا الوضع مع الأطفال الصغار يتفاقم بما اعتبرته افتراضاً سنة من جانب الراشدين حول الأطفال الصغار: إننا نميل إلى افتراض أن الأطفال يشبهوننا في أفكارهم أكثر مما يشبهوننا في مشاعرهم. ولكن في الحقيقة، العكس هو الصحيح: الأطفال يشبهوننا تماماً في مشاعرهم ولا يشبهوننا إلا قليلاً في أفكارهم. تجدون أدناه مثلاً عن استجابة ابن سنتين لنزيف دماغي مدمر ترك الرجل معاقاً لا حول له ولا قوة. حدث الانفجار عندما ذهبت الأم والولد للاستشارة. قالت الأم:

توقف ويل عن اللعب وحدق أمامه. ثم بدأ فجأة يلتقط اللعب ويلقي بها حول الغرفة بضراوة وبكل ما أوتي من قوة. قلت في نفسي «رباه ماذا أفعل أنا هنا؟» كان لدي طفل سعيد تماماً. ثم جرى ويل نحوي وبدأ يضربني. شعرت بجرح عميق. وغضبت من المستشارة. ولكن قبل أن أتمكن من الكلام، كانت قد انحنت جاثية قرب ويل وأخذت تشرح بهدوء أن لا بأس بإلقاء الدمى لأنها كانت دمي فحسب، وفي الوقت الذي لم يكن له الحق بضرب أمه، لكن كان له الحق في الغضب منها. سألته المستشارة: «ماما لم تهتم بكل شيء أليس كذلك يا ويل؟».

«لا» أجاب ويل منفِعلاً «لم تفعل، لقد تركت والدي يمرض وأنا أكرهها». وبمُنْتَهَى الحذر والتمهل راحت المستشارَة تشرح أن ليس لأي شخص حتى الأطباء أن يمنعوها الوالد من المرض، وكذلك ماما...عندها تسلق ويل إلى حضن أمه وعانقها وراح ينتحب. قالت والدَة ويل «لقد دهشت. لم أكن أتوقع أبداً أن طفلاً في سنته الثانية يحمل هذه العواطف العميقة»⁽¹⁾.

وبالتالي فإننا عندما نضطر إلى استعجال الأطفال الصغار، وعندما يضطرون إلى البقاء في مركز للرعاية النهارية أو لدى جليسة أطفال، علينا أن نتفهم مشاعر الأطفال حيال الموضوع. وإذا أعطيت الطفل تفسيراً منطقياً كأن نقول: «أنا مضطر إلى العمل كي نستطيع أن نأكل، ونشتري الثياب وأشياء أخرى» فإن ذلك يساعده قليلاً، لكنه لا يكفي لطمأنه ما يفكر به الطفل ضمناً. «لو أنهما يحبانني حقاً لما تركاني هكذا». علينا أن نستجيب لإحساس الطفل أكثر من فكرة. كأن تقول: «سأفتقدك حقاً اليوم وأتمنى لو كنت معي». الكلمات بحد ذاتها لا تهم وإنما ما ترمي إليه من أن الفراق مؤلم بالنسبة إليك أنت أيضاً لكن لا مناص منه. ومهم أيضاً عندما تذهب لتأخذ طفلك في آخر النهار أن تقول إنك سعيد جداً لرؤيته. فاستجابتك لمشاعر الطفل الصغير تخفف شيئاً من الشدة التي يسببها الاستعجال.

قد يؤدي ميلنا أحياناً إلى الظن أن الأطفال لا يشاركوننا مشاعرنا إلى مفاقمة الشدة التي يسببها الاستعجال بطريقة مختلفة. فعندما نكون في عجلة من أمرنا ربما نسيء الأدب أو

نتعامل مع الأطفال الصغار دون أن نكثر بما نقول لأننا نفترض أنهم ليسوا معنيين بهذه الأمور مثلنا. لكن الأطفال بالغو الحساسية حيال المؤشرات التي تنبئ باهتمام الوالدين وحرصهما. وإذا اضطررنا إلى الإخلال بوعدنا باصطحاب الطفل إلى السينما أو الحديقة أو حديقة الحيوان فإن من الأهمية بمكان أن نعتذر ونوضح أننا آسفون لذلك، وبالطريقة نفسها عندما نطلب من الطفل أداء أمر ما يوفر علينا بعض الوقت أو يمد يد المساعدة فمن الأهمية بمكان أيضاً أن نقول «من فضلك» و «شكراً». لأن معاملة الأطفال بتهذيب أمر يخاطب إحساسهم بأهميتهم (كما هو الأمر مع الكبار) التي لا يشعرون بها ونحن نستعجلهم. كما أن التعامل بتهذيب مع الأطفال يساعدهم على النظر إلى الاستعجال بطريقة لا تولد ذلك القدر من الشدة.

التهذيب مع الأطفال أمر بالغ الأهمية ويؤثر في تحسين العلاقات بين الآباء والأبناء أكثر من أي خطط استراتيجية تطرح حالياً على الآباء. فجوهر الأخلاق الحميدة ليس القدرة على قول الكلمات المناسبة في الوقت المناسب بقدر ما هو في الحرص على الآخرين ومراعاة حقوقهم ومشاعرهم. وعندما نعامل الأطفال بأدب، نظهر بأبسط الطرق وأكثرها مباشرة أننا نقدرهم كأشخاص ونهتم بمشاعرهم. وبهذا فإن الأدب والتهذيب واحد من أبسط وأنجع الطرق لتخفيف الشدة التي يعاني منها الأطفال ومساعدتهم ليكونوا أشخاصاً حساسين يراعون حقوق الآخرين ومشاعرهم.

وعندما يصل الطفل إلى سن المدرسة والعمليات الصلبة التي تحدث عنها بياجيه (انظر الفصل السادس)، يبدأون بالنظر إلى الاستعجال بطرق أكثر تعقيداً. ففي المستوى العاطفي الأعمق، ما زال الأطفال يرون في الاستعجال نوعاً من الرفض. ولكن بدل أن يلحقوا اللائمة على أنفسهم أو على آبائهم، فإنهم يستخدمون قدراتهم الذهنية الجديدة في عقلنة تصرف الوالدين وإيجاد أسباب معقولة للاستعجال مقبولة أكثر من كونها حقيقية. لهذا لا يناقش الطفل المعجزة استعجال أبويه له إبان طفولته. فالأطفال في هذه المرحلة إما أنهم يقبلون منطق آبائهم أو يطبقون منطقهم الخاص.

الأطفال في سن المدرسة أكثر اعتماداً على الذات وأكثر استقلالاً من الأطفال الصغار. وبالتالي فإنهم غالباً ما يبدو ترحيباً بالاستعجال من زاوية تلهفهم للاضطلاع بمهام الكبار ومسؤولياتهم، خاصة في البيوت التي تعيش في كنف أحد الوالدين دون الآخر، حيث يحاولون غريزياً أداء دور الوالد الغائب. الخطير في هذه المجموعة العمرية هو في قبول الأبوين هذا المظهر من مظاهر النضج على أنه نضج أكثر مما هو في الحقيقة، مجرد لعب. والصورة التي يجب أن نتذكرها بالنسبة لهذه المجموعة العمرية هو بـيتر بان Peter Pan الذي أراد تحمل بعض مسؤوليات الكبار (كالقيادة والحماية الخ) لكنه لم يكن يريد أن يكبر ويصبح له بعض الصفات السلبية التي يراها الأطفال في الكبار. يحب الأطفال أن يلعبوا أنهم كبار ولكنهم

لا يريدون من الكبار أن يصدقوا أنهم كبار فعلاً.

مهم جداً أن نعبر لهذه المجموعة العمرية عن تقديرنا لكل ما يفعلونه من أجلنا - كأن يساعدوننا في أعمال البيت، وفي رعاية الأطفال، وما إليها - ولكن مع إدراكنا أنهم ما زالوا أطفالاً وأن هناك بعض الأشياء التي يجب ألا نثقل كاهلهم بها. فعندما يشعر أكبر الأبناء مثلاً أنه أصبح كبيراً بما يكفي لأن يهتم بإخوته الصغار دون أن نشعر نحن أن بإمكانه ذلك، من الأهمية بمكان أن نقول إننا نستحسن رغبته في مساعدتنا وسيسعدنا أن نتركه يعتني بالصغار بعد أن يكبروا قليلاً وتصبح العناية بهم أسهل. ونحن إذ نرسم حدوداً ونقول إن الحدود تتعلق بعدم نضج الأطفال الصغار بقدر ما تتعلق بعدم نضجه هو فإننا نعرب عن إدراكنا لاستعداده لأن يصبح كبيراً كما نعرب عن إدراكنا لرغبته بالاحتفاظ بامتيازات الأطفال.

وعندما ينتقل الأطفال الصغار إلى مرحلة المراهقة ويكتسبون قدرات ذهنية جديدة أكثر تعقيداً، يتخذ الاستعجال بالنسبة إليهم بُعداً جديداً. فعلى الرغم من أن المراهقين أيضاً يرون في الاستعجال رفضاً على المستوى العميق للطفل الصغير، فإنهم يبدأون برؤيته من زاوية أكثر تعقيداً وتجرداً. قبل كل شيء يبني المراهقون مفاهيم للوالدين المثاليين اللذين يعرفان كل شيء، ويمثلان الطيبة كلها والكرم، ثم يقارنون والديهم الحقيقيين بهذه الصورة النموزجية ويجدون أنهما دونها بشكل محزن. وهذه إحدى الأسباب التي تجعل المراهقين

ينتقدون آبائهم في لباسهم وأكلهم وحديثهم وشكلهم وأمور أخرى. وعندما يشعر المراهق أن والديه يستعجلانه يصبح الانتقاد سراً وجنوناً مؤقتاً. وإذا لخصنا طريقة استجابة المجموعات العمرية الثلاث للاستعجال ربما نقول إن الأطفال الصغار يميلون إلى لوم أنفسهم، والأطفال يميلون إلى لوم العالم أما المراهقين فيميلون إلى لوم أبويهم.

ثانياً: لا يلوم المراهقون والديهم لاستعجالهم كمراهقين فحسب وإنما يلومون استعجالهم كأطفال أيضاً. وفي الوقت الذي يعقلن الأطفال في سن المدرسة استعجال والديهم إلا أنهم لا ينسونه. والواقع أن المراهقين يردون خلال سنوات مراهقتهم على جميع ما ارتكبناه بحقهم من أخطاء، حقيقية أو متخيلة، عندما كانوا أطفالاً. ونحن، كأبوين، نحتاج فعلاً أن نبدأ بالاستعداد لمراهقة أطفالنا وهم في المهد. لأنهم عندما يستكمل نموهم، يكون أوان التفكير بمشاعرهم قد فات.

أقل ما يمكن قوله هو أن التعامل مع المراهقين أمر معقد. فقدراتهم الذهنية الجديدة تجعلهم معارضين أقوى في أي نقاش، كما أن حجمهم وقوتهم، ونضجهم الجسدي يطيح بأي تفاوت جسماني سابق. ما يجب أن نتذكره دائماً هو أن المراهقين ما زالوا يحبون والديهم ويريدون حبهما. إنهم يقاومون الآن الاستعجال المباشر لأنهم يرون فيه خرقاً للتعاقد من طرف الوالدين، يشكل استغلالاً. ولأنهم يريدون أن يكونوا موضع حب واهتمام فإنهم يرتكسون بشكل قوي لتجاوز

العقود. ربما كانوا لا يريدون الاعتراف فعلاً بمدى اهتمامهم ورغبتهم أن يكونوا هم أيضاً موضع اهتمام. من هنا كان خرق العقود مؤلماً، لأن ذلك الخرق يجبر المراهقين على الاعتراف بمدى اعتمادهم على حب والديهم وحاجتهم إلى ذلك الحب. في كل الأحوال، ومن واقع خبرتي مع اليافعين الجانحين، لمست أن الإحساس الأكثر شيوعاً الذي يعبرون عنه هو شعورهم بالاستغلال، وبأنهم يستخدمون من قبل أبوين يقدمان حاجتهما على حاجات أولادهما.

عند التعامل مع هذا الفهم للاستعجال لابد لنا من الاعتراف أن هذه هي حقيقة اليافع. وعلى الرغم مما قد يكون لدى الأبوين من أسباب تبرر ما يفعلانه إلا أن اليافعين لا ينظرون إلى الأمور بالطريقة نفسها. والنقاش مع المراهق يكون له عادة عكس الأثر المقصود. فعندما يقول المراهقون إنهم يجب ألا يحملون مسؤولية تنظيف غرفهم، وغسل الأطباق، أو الاهتمام بالأخوة الصغار، فإن مناقشة الموضوع لن تؤدي إلى أي شيء. فالمراهقون يرون في هذه الطلبات دفعاً لتحمل مسؤوليات يعتبرونها مسؤوليات شخص آخر. حسب طريقة تفكيرهم. إنهم معفيون، بفضل كونهم مراهقين، من أداء الأعمال الروتينية اليومية الشاقة. والنقاش مع المراهقين لا يؤدي سوى إلى تمسكهم بمواقفهم وإصرارهم عليها.

ماذا يفعل الوالد هنا؟ يقول المثل: «إذا كبر ابنك خاويه». مفيد أحياناً أن تقبل رؤية أو فهم اليافع للوضع وأن تنطلق منه.

فخلال عملي مع الجانحين مثلاً كنت أناقش معهم رؤيتهم السلبية لوالديهم. كانوا يحدثونني عن مدى سوء والديهم وكنت أحاول أن أشير إلى الجهود التي بذلها الوالدان لمساعدة الوضع، ولكن دون جدوى. وكلما دافعت عن الأبوين كان المراهقون يتمادون في مهاجمتهما. ثم قررت أن أحاول أسلوباً آخر. قبلت وجهة نظرهم لكنني أشرت إلى أنني لا أوافقهم الرأي، «قد تكون محقاً ولكنني لم أرهم كذلك. وأتعجب كيف تتفاوت رؤيتنا لهم».

وهكذا أعتقد أن إحدى سبل التعامل مع مفهوم المراهقين للاستعجال كونه استغلالاً هي أن نقبل أن مفهومهم صحيح، من وجهة نظرهم في الأقل. فالموقف المتوسط بين القبول التام لحقيقتهم والرفض الكامل لها هو قبول حقيقة أننا إذ نعترف أن حقيقتهم صحيحة بالنسبة إليهم. فإنها ليست صحيحة بالضرورة بالنسبة إلينا. لذلك عندما يناقش المراهق طلباً معيناً بإمكاننا أن نقول «حسناً، أعرف أنك تشعر أن ما أطلبه منك غير منطقي. إلا أنني لا أعتقد أنه كذلك، لكنني أستطيع أن اقدر أنك تراه كذلك. ما هي المسؤوليات التي تعتقد أنها معقولة بالنسبة لشخص في عمرك وفي ظروفك؟» في الأغلب، عندما يطرح هذا السؤال يدرج اليافع قائمة من المسؤوليات الأكثر صرامة من تلك التي طرحها الوالدان. إلا أن هذا لا يكفي عادةً - للأسف - لأن نجعل اليافعين يقومون بما نطلبه منهم. إلا أنه يساعد في جعلهم يفهمون موقفنا بشكل واقعي أكثر ويعترفون أن الأمر

يتعلق بالكسل أو المماطلة أو بأي سبب آخر غير الاستغلال الذي يمارسه الوالدان. وهذا يبطل الأثر العاطفي ويخفف الشدة، التي قد تكون بالقدر المأمول.

وهكذا نرى أن الأطفال يفهمون الاستعجال بشكل مختلف عن رؤيتنا له. وإذا أردنا تخفيف بعض الشدة التي يولدها الاستعجال الذي لا بد منه والذي يعيشه جميع الأطفال في مجتمعنا، لا بد لنا أن نأخذ بالاعتبار الطريقة الخاصة التي يرون الاستعجال ضمنها. من أجل ذلك علينا أن نخرج من إطار مفهومنا الشخصي الخاص بالكبار ولما كنا ملتزمين بما نراه حقيقياً التزام الأطفال بما يرونه حقيقياً فإن ذلك ليس دائماً بالأمر السهل. حتى أنه يزداد صعوبة عندما نكون تحت تأثير شدة، فعندما نعاني من شدة ما نركز على ذاتنا ويصعب علينا رؤية العالم من منظور شخص آخر.

في هذه الأوقات الانتقالية الزاخرة بالشدة نلمس أهمية كبرى لأن نحاول أن ننظر إلى العالم من الزاوية التي ينظر منها الأطفال المستعجلون. وعندما ننطلق من رؤيتهم هم للعالم نستطيع أن نأمل فعلاً أن نساعدهم على رؤية حقيقة أن الاستعجال ليس رفضاً وأن خرق العقود ليس استغلالاً.

اللعب ترياق الاستعجال

تحدثنا حتى الآن عما يمكن للأبوين أن يفعلاه لمساعدة الأطفال المستعجلين، ولكن رأينا أن المدارس ووسائل الإعلام

تستعجل الأطفال أيضاً. وفي حين لم يكن تغيير المدارس ووسائل الإعلام ممكناً دائماً إلا أن جهوداً حثيثة قد بذلت. فقد شجعت مجموعات من الآباء عدداً من أنظمة المدارس على تقديم برامج تعليمية بديلة يستطيع الأبوان الاختيار بينها، كالخيار بين برنامج يركز على المنهاج وآخر يركز على الطفل. كما كان تلفزيون العمل من أجل الأطفال Action for Children's Television (ACT) فاعلاً جداً في جعل واضعي البرامج يخففون من العنف، ومن الإعلانات عن الأغذية المحلاة بالسكر، وما إليها. تستطيع جماعات الآباء النجاح في جعل المدارس ووسائل الإعلام تحول تركيزها وتأخذ وجهة نظر الأطفال في الاعتبار. وهذا مهم بشكل خاص في مجال لعب الأطفال.

المؤسف هو أن قيمة ومعنى اللعب لا تلقى فهماً جيداً في مجتمعنا المستعجل. والواقع هو أن ما حدث للكبار في المجتمع حدث الآن للأطفال - لقد تحول اللعب إلى عمل. وما كان مرة ترفيهياً - كالرياضة ومعسكرات الصيف والتدريب الموسيقي - أصبح الآن اختصاصياً وتنافسياً. ففي المدارس، حيث الميزانية محدودة، أول ما يخفض من المواد هو الفن والموسيقى والمسرح. ووسائل الإعلام التي ترشح بالتهربية الجديدة لا تقدم إلا ما ندر من الفانتازيا الخيالية الحقيقية. وربما كان أفضل دليل على مدى استعجال الأطفال هو تساؤل فرص اللعب الحقيقي المتاحة لهم.

ما هو اللعب، ولماذا هو على هذا القدر من الأهمية لنمو الأطفال؟ على مدى السنين طرحت نظريات كثيرة عن اللعب، كل منها تضمن شكلاً من أشكال الحقيقة. اعتبر الفيلسوف هيربرت سبنسر Herbert Spencer اللعب وسيلة لتخفيف «الطاقة الفائضة»⁽²⁾. يرى سبنسر أن لدينا من الطاقة أكثر مما نحتاج لتكيف مع المجتمع العصري. هذا الفائض «يحرق» في اللعب الذي ليست له أي أغراض إنتاجية. وعند منقلب القرن كتب كارل غروس Karl Groos المتخصص في علم الأحياء كتاباً في مجلدين عن لعب الحيوان والإنسان قال فيه إن اللعب هو «تهيئة للحياة»⁽³⁾. وأشار إلى أن صغار الحيوان يلعبون ألعاب المطاردة (كأن تقفز الهرة الصغيرة على كرة من الخيطان) ذلك يحضرها لمطاردة فريسة عندما تكبر. بطريقة مماثلة، عندما يلعب الأطفال لعبة البيت، فإنهم يقومون بنشاط يحضرهم للقيام بأدوار الكبار. كما أشار غروس إلى أن اللعب يمهد لحب الجمال.

وقد كان لنظرية غروس من أن اللعب تهيئة للحياة تأثير كبير في الأوساط التعليمية. جعلت منه المربية الإيطالية ماريا مونتيسوري Maria Montessori نبزاً لبرنامجها التعليمي. فرويتها للتعليم، أحدثت استفاقة وأصبحت رائجة جداً في الولايات المتحدة، حولت نظرية غروس إلى صيغة بسيطة أصبحت شعاراً للتعليم المعاصر في مرحلة الطفولة الأولى: «اللعب هو عمل الطفل». لم تكن مونتيسوري، التي اشتغلت في البداية مع الأطفال المعاقين ثم مع أطفال الفقراء في إيطاليا،

لم تكن ترى في اللعب أو الخيال غاية بحد ذاتها. وقد كتبت :

لطالما أعطي الخيال موقعاً متقدماً في علم نفس الطفل والناس في جميع أرجاء العالم يحكون لأطفالهم قصصاً خيالية عن الجنيات يستمتعون بها بشكل كبير، وكان الأطفال يريدون العيش مع تلك الهبة الرائعة التي تُسمى الخيال. ولكن عندما يتفق الجميع على أن الطفل يحب أن يتخيل، لماذا لا نعطيه سوى قصص الجنيات والدمى ليمارس عليها خياله؟ إذا كان الطفل قادراً على تخيل جنية، وأرض للجنيات، لن يصعب عليه تخيل أمريكا. وبدل أن يسمع عن أمريكا كلاماً غامضاً أثناء حوار فإنه يستطيع أن يساعد في توضيح أفكاره الخاصة عنها بالنظر إلى حيث تظهر على الكرة الأرضية⁽⁴⁾.

هذا الموقف حيال اللعب كشيء تابع للتكيف الاجتماعي وتحضير للحياة راج لفترة بسيطة في هذه البلاد، مثله مثل تعليم مونتييسوري قبيل الحرب العالمية الأولى. إلا أن أفكار مونتييسوري هوجمت من قبل المربين الأمريكيين في الوقت الذي بدأ عمل فرويد يعرف بشكل أفضل وبدأ بالتراجع بين الحربين عندما كان تأثير فرويد على التعليم يتعاظم ويشدد. كان فرويد يرى اللعب مهماً بحد ذاته كصمام أمان للتعامل مع القمع الاجتماعي. فالأحلام والنكات والمسرحيات كانت جميعها ضرورياً من اللعب بمعناه العريض. وكانت جميعها طرقاً مقبولة اجتماعياً لتفريغ الرغبات والأمانى والمشاعر غير المقبولة. هذه النظرة إلى اللعب أصبحت مشوشة في بعض أوجه التعليم

التقدمي. فقد ساد شعور في بعض المدارس «التقدمية» أن أي تحكم بدوافع الطفل سيؤدي إلى القمع والعصاب. وسيطر موقف «أي شيء مقبول» على هذه المدارس. وقد قمت بزيارة لواحدة من تلك المدارس حيث سمح لصبي مضطرب أن يجلس مسحوقاً في حجرته الصغيرة طوال اليوم.

لكن فرويد لم يكن يقصد أن اللعب هو الشاغل الوحيد للأطفال ولا أن القمع «سيء». فالتماذي بالقمع وليس القمع بحد ذاته هو الذي قد يسبب العصاب. وخلاف مونتيسوري، التي كانت تعتبر جميع أنواع التكيف تكيفاً اجتماعياً، فقد ميز فرويد بين نمطين، أو قطبين، من التكيف⁽⁵⁾. يتضمن أحدهما إرضاء حاجات الفرد الأساسية من غذاء وماء وجنس وتقدير للذات وما إليها. هذه الحاجات، من ناحية المبدأ في الأقل، تنعكس من خلال نمط خاص من التفكير أسماه فرويد «العملية الأولية» ويتضمن تفكير العملية الأولية عمليات لا منطقية كالاببدال والتحول والتكثيف. هذه العمليات بدورها تحرض الأحلام، والنكات، وزلات اللسان، والنزوات، واللعب. جميع هذه الفعاليات تمكن الفرد من التعبير عن الحاجات والرغبات المزعجة بطريقة مقبولة اجتماعياً.

النمط الثاني من التكيف له علاقة بالعالم الخارجي من قوانين مادية وتفاعلات اجتماعية، وطالما أننا كائنات بيولوجية، فإن علينا أن نتكيف مع بيئتنا المادية. وككائنات اجتماعية، يترتب علينا التكيف مع بيئتنا الاجتماعية. من أجل هذا التكيف

لدينا نمط مختلف من التفكير أسماه فرويد «العملية الثانوية». وخلاف العملية الأولية، التي تعمل بواسطة استبدالات متخيلة، وتحولات وتكثيفات. تتميز العملية الثانوية بأنها منطقية أصلاً - فهي موجهة للتعامل مع بيئات تحتكم أصلاً إلى أعراف وقوانين.

بالتالي فإن التكيف الصحي، من وجهة نظر فرويد، يتطلب نوعاً من التوازن بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع. فالأشخاص الأصحاء يجب أن يكونوا قادرين على العناية بأنفسهم قبل أن يستطيعوا العناية بالآخرين. واللعب تعبير عن حب الذات لأنه يمكن الفرد من الاهتمام بحاجاته الخاصة. لكن اللعب حب صحي للذات بمعنى أنه يمكن الفرد من العمل وبذلك فإنه يخدم الآخرين.

وقد عزز بياجيه تمييز فرويد بين نمطي التكيف وبين العمل واللعب كنوعين متعارضين من التكيف⁽⁶⁾. ومثل فرويد، لاحظ بياجيه الفرق بين نوعين مختلفين من التكيف، أسماهما «الاستيعاب» و«التوفيق» على التوالي. وقد كان استيعاب بياجيه يشبه في بعض الأوجه عملية فرويد الأولية من ناحية أنها تستطيع تحويل الحقيقة بطرق غير عقلانية. كما أنها معنية بإرضاء الحاجات الشخصية. وبالتالي فإن مفهوم فرويد للعملية الثانوية من زاوية أنها هي أيضاً معنية بتكيف الفرد مع العالم الخارجي. يرى بياجيه، مثله مثل فرويد، أن اللعب يتضمن تحويلاً للحقيقة لخدمة إرضاء حاجات شخصية. إن كلاً من

اللعب والعمل، والعمليات الأولية والثانوية، والاستيعاب والتوفيق أشياء ضرورية للتكيف الصحي.

على مدى العقود الكثيرة الأخيرة حلت فكرة مونتيسوري أن اللعب هو عمل الطفل محل رأي فرويد/ بياجيه بأن اللعب والعمل نشاطات مختلفة إلا أنها تتمم بعضها. والواقع أن من الممكن القول إن الاستعجال بمثابة الضغط على الأطفال لتقديم توفيقات اجتماعية على حساب الاستيعاب الشخصي. ترى وجهة النظر هذه أن الأطفال المستعجلين يعملون أكثر مما يلعبون، هذا هو سبب معاناتهم من ذلك القدر من الشدة. وخير دليل على هذا الموقف السلبي من لعب الأطفال هو النمو السريع لمدارس مونتيسوري خلال العقدين الماضيين فهناك الآن آلاف من صفوف ومدارس مونتيسوري في طول البلاد وعرضها، والعدد آخذ في الازدياد. وهذا تطور صحي لأن مدرسي مونتيسوري غالباً ما يكونون أفضل تدريباً في فن التعليم من معظم أبناء الجيل الشاب الذي يتخرج من معاهد المعلمين. إلا أن التحامل ضد اللعب ما زال موجوداً، وربما كان إحدى الأسباب التي تجذب الآباء إلى مدارس مونتيسوري أكثر من إقبالهم على «اللعب» التقليدي ما قبل المدرسة.

يبين المثال التالي كيف يترجم شعار «اللعب هو عمل الطفل» إلى طريقة تعليمية: أثناء ملاحظتي لإحدى مدارس الحضانة الأثيرة لدي، كنت أرقب مجموعة من الأطفال في أعمار الرابعة والخامسة يلعبون ببضعة ديناصورات من

البلاستيك. قال أحد الأولاد «سأكلك». واقترب بوحشه نحو وحش جاره. أجاب الولد الآخر: «عليك أن تمسك بي أولاً، فأنا أسرع منك». وأخبا حيوانه وراء جدار من الكتل الخشبية. عند ذلك دخلت طالبة معلمة وقررت أن تستغل اهتمام الأطفال (ما يسمى لحظة التعليم) وتعلمهم بعض مفاهيم الحجم بمساعدة الديناصورات. فسألتهما: «أيهما هو الأكبر؟» لكن الولدين، باحتقار واضح للحظة التعليم، تركا لعبة الديناصورات والتفتا إلى أشياء أخرى.

يرى الأطفال الصغار في الديناصورات بعداً رمزياً كبيراً جداً. فهي حيوانات كبيرة وجبارة. لكنها إذ يصغر حجمها وجبروتها وتصبح قطعاً بلاستيكية، يصبح التعامل معها سهلاً. كما أنها بعيدة وآمنة ولا خطر من أن تقابل أحدها في الشارع. لذلك فإن الديناصورات تقدم للأطفال طريقة رمزية وآمنة للتعامل مع مرده عالمهم - أي الكبار. فالأطفال الصغار يسمعون طوال الوقت من يقول «لا» أو «أخرج من هنا». الكبار يحبطونهم عند كل منعطف لكنهم كبار جداً لا يستطيعون هزيمتهم مباشرة لذلك يلجأ الأطفال إلى القتال غير المباشر، والديناصورات بدائل للتحكم بعالم المرده. وعندما تدخلت الطالبة المعلمة وحاولت أن تحول التكيف الشخصي إلى تكيف اجتماعي - تحويل اللعب إلى عمل - تخلى الطفلان عن اللعب لأن اهتمامهما بالديناصورات اهتمام شخصي - وليس اجتماعياً.

لا بد للأطفال من تعلم مقارنات الحجم. وتستطيع

اهتماماتهم العفوية أن تكون مشعراً بالمواد الدراسية. ويحتاج الأطفال أن يفعلوا ما هو أكثر من اللعب. فعند كل منعطف يتعلمون قواعد اجتماعية - كيف التصرف في مطعم، أو على الطائرة، وفي بيوت الأصدقاء. وكيف ترتدي ثيابك، وكيف تخلعها، وكيف تأكل بأدوات الطعام، وكيف تنظف ما وراء أذنيك، وكيف تنشف نفسك بمنشفة. كما يتعلم الأطفال المفاهيم الأساسية حول المكان والزمان والعدد واللون وما إليها.

هذه ومعلومات اجتماعية أخرى - كنتك التي تحدثنا عنها في الفصل السابع - هي العمل الحقيقي للطفولة. لكن الأطفال يحتاجون إلى فرصة للعب الخالص إضافة إلى العمل. إذا شعر الكبار أن كل اهتمام عفوي يبيده الطفل يجب أن ينتهز فرصة لتلقين درس يجد الطفل أن فرص اللعب الخالص لديه قد تقلصت. وفي جميع مراحل التطور، في البيت أو في المدرسة، يحتاج الطفل إلى فرصة يمارس فيها اللعب من أجل اللعب. وسواء كان ذلك اللعب لعباً رمزياً للأطفال الصغار، أو ألعاباً ذات قوانين كالتي يلعبها الأطفال في عمر المدرسة، أو الألعاب الثقافية الأكثر تعقيداً التي يمارسها الطفل في فترة المراهقة (مثل الألغاز) فإن الأطفال يجب أن يمنحوا الوقت والتشجيع اللازمين لممارستها.

فاللعب هو أصلاً طريقة الطبيعة لعلاج شدة الأطفال، كما الكبار. ونحن كأباء نستطيع تقديم العون بتأمين الألعاب وأدوات

اللعب التي تعطي أوسع مدى لخيال الطفل. ألعاب الربط وتلك التي تعمل بالبطارية ألعاب مسلية لأنها تعمل بشكل غير متوقع، إلا أنها لا تترك حيزاً يذكر للتعبير الشخصي. والأفضل أن يوفر المال الذي ينفق على ألعاب من ذلك النوع لينفق على شراء مجموعة من المكعبات التي تطلق خيال الطفل الإبداعي ويمكن أن يستخدمها سنوات كثيرة. وهناك مواد أخرى كأقلام التلوين، والصلصال، والطباشير وكلها أدوات لعب إبداعية لأنها تفسح المجال أمام التعبير الشخصي للطفل. وليس مهماً أن نسأل الأطفال عما ابتكروه، لأنهم ربما لا تكون لديهم فكرة واعية. والسؤال عن معنى ما ينتجه الطفل أشبه بمحاولة المعلمة تحويل لعب الأطفال بالدينامصورات إلى خطة درس موجه للكبار.

ونحن كمواطنين مهتمين نحتاج إلى تعزيز قيمة الفنون في المدارس. والتركيز المفرط على الأساسيات في التعليم المعاصر دون تركيز مقابل على التعبير الشخصي من خلال الفنون يستعجل الأطفال إذ يدمر التوازن الضروري بين العمل واللعب. وقد بدأت الصناعة الأمريكية في الآونة الأخيرة تدرك حاجة العمال إلى طرق من التعبير عن الذات من خلال العمل. ولا بد للمدارس من إدراك أن الأطفال أيضاً يعملون بشكل أفضل، ويتعلمون بشكل أفضل، وينمون بشكل أفضل، إذا تناوب الوقت الذي يخصص للتكيف الاجتماعي - تعلم الأساسيات - مع الفترات التي تخصص لسبل التعبير عن الذات. وليس من التبذير في شيء أن المال والوقت اللذين يخصصان للفنون يعززان

التعلم والتطور بتخفيف شدة الاستعجال وإعطاء الأطفال نظرة جمالية توازن نظرة يوم العمل.

وأخيراً، فإننا كمستهلكين لوسائل الإعلام، نحتاج إلى تأكيد قيمة الفانتازيا واللعب الحقيقي. والحاجة الحقيقية إنما هي لكتاب مبدعين يقدمون مادة نوعية للأطفال تتحدى خيالهم بقدر ما تسليهم. ويخطئ من لا يرى أهمية الفانتازيا بسبب سوء نوعية المادة التي تقدمها معظم برامج الأطفال ومعظم كتب الأطفال. فالفانتازيا الإبداعية تحوي قيمة شخصية موازنة وقد يكون لها مزايا تعليمية اجتماعية إضافية أفضل، كتلك التي تميز حكايا الجان، تساعد الأطفال في التعامل مع شدة الحياة. والنجاح الذي تحققه كتب هاري بوتر Harry Potter Books خير مثال على ما لهذه الحاجة من قوة دائمة.

كيف تعيش أربعاً وعشرين ساعة في اليوم

عنوان هذه الفقرة أخذ من كتاب لآرنولد بينيت Arnold Bennett الروائي والكاتب المسرحي والأخصائي في الخدمة الذاتية⁽⁷⁾. وقد استخدم في العنوان الاستراتيجية القديمة الرجوع للتعامل مع الشدة التي أقرها فلاسفة مثل أبيقيتوس Epictetus ومحاربين مثل ماركوس أو ريليوس Marcus Aarelius. تعتمد رسالتهم أساساً على أن جل الشدة والبؤس اللذين يعاني منهما البشر تأتي من التمسك بالماضي، وما كان يمكن أن يحدث، أو في المستقبل، وما يمكن أن يحدث فيه. في الحقيقية ليس

هناك ما يمكن أن تفعله حيال الماضي، أما المستقبل فله إشكالياته. إننا لا نملك السيطرة سوى على الحاضر، وهنا يجب أن نركز طاقاتنا.

المؤسف هو أن هذا الطرح يساء فهمه أحياناً كنقاش من أجل المتعة: «عش اليوم لأنك قد تموت غداً». لكن لم يكن هذا هو ما رمى إليه الفلاسفة. لقد رأوا الحياة ككل، يقودها مبدأ وهدف أخلاقي. ولما كان لكل يوم شروطه الخاصة في الحياة، فإن هذه الشروط لا بد أن تنسجم مع القوانين الثابتة للمجتمع والأخلاق.

عليك في كل لحظة أن تفكر بشكل مستقيم يليق بروماني ورجل يقوم بكل ما يوكل إليه عمله بكرامة تامة وبسيطة، وبإحساس بالعاطفة، وحرية وعدالة، وأن تدع عنك جميع الأفكار الأخرى. سترتاح كثيراً إذا قمت بكل ما تفعله في حياتك وكأنه آخر عمل تقوم به، وتخليت عن الطيش واللامبالاة والابتعاد عما يمليه المنطق، والتعلق وحب الذات، وعدم الرضا عن نصيبك في الحياة⁽⁸⁾.

على الرغم من أن الأطفال أصغر من أن يعقلوا هذه الأفكار، إلا أنهم يستطيعون الاقتداء بسلوك أبويهم. إذا ركزنا على الحاضر والواقع الآن دون أن نلتفت إلى الأمس أو الغد، فإن أطفالنا سيفعلون ذلك أيضاً. فإذا كنت أمّاً عاملة استمتعي بالوقت الذي تمضيه مع طفلك ولا تفسدي متعته بقلقك حيال الوقت الذي لم تمضيه معه أو حيال الأوقات التي ستبتعدان عن

بعضكما فيها في المستقبل . فالأطفال يعيشون الحاضر، ويشعرون عندما نكون معهم بأجسامنا بينما فكرنا في مكان آخر. لكن القلق حيال الماضي والمستقبل يفقدنا الحاضر ولا يشعر أطفالنا بوجودنا حتى ونحن معهم.

عودتني السنوات التي عشتها أن أستقطع لنفسي بعض الوقت كل يوم، لأستمتع بغروب الشمس، أو أراقب السنونو في طيرانه، أو أعجب برقاقة ثلج. هذه اللحظات يمكن، ويجب أن نشرك الأطفال فيها. كما أنني أمنح نفسي لحظة أراجع فيها أحداث اليوم، وأقيم، دون ندم، إلى أي مدى سعت نحو هدف تسخير جميع طاقاتي لخدمة العمل الذي أقوم به. وأعتقد أن هذه العادات تنتقل إلى الأطفال الذين يعيشون معنا. وأننا بقدر ما ندمج صمامات تنفيث الشدة في حياتنا اليومية، نيسر للأطفال تعلم استراتيجيات وأساليب مماثلة.

لخصت أعلاه واحدة من فلسفات مختلفة كثيرة أو أساليب في فن الحياة. يتحدث هانز سيلبي Hans Selye مثلاً عن «الأنانية الغيرية» - أو بتعبير آخر أن نخدم أنفسنا بخدمة الآخرين. وكان لدى آلبرت شويتزر Albert Schweitzer فلسفة أسماها «تبجيل الحياة» التي تفرض احترام وتقدير جميع الكائنات الحية. ليس لأي فلسفة واحدة أن ترضي الجميع، لكننا جميعاً نحتاج إلى فلسفة في الحياة، أو طريقة ننظر بها إلى الحياة بشكل عام ومن خلال منظار خاص. إن فن الحياة هو المهمة الأكثر صعوبة التي يترتب على الأطفال تعلمها،

ويتعلمونها على أفضل وجه إذا كان لدى أبويهم أو مربيهم طريقة ينظرون من خلالها إلى الحياة بشكل كامل.

مهما تكن الفلسفة التي نعتنقها في الحياة، فإن من الأهمية بمكان أن ننظر إلى الطفولة كمرحلة في الحياة، وليس كمجرد غرفة انتظار لدخول الحياة. واستعجال الأطفال للوصول إلى الرشد يفسد قدسية الحياة بتقديم مرحلة من مراحلها في الأهمية على أخرى. ولكن إذا كنا فعلاً نقدر الحياة البشرية حق قدرها فإننا نعطي لكل مرحلة حقها بالتساوي وبما يلائم تلك المرحلة.

إن فلسفة الحياة، أو فن العيش هو حتماً إحدى طرق أبطال التركيز، وهو طريقة للنظر إلى حياتنا نظرة شمولية تعترف بحاجات وحقوق الآخرين. فإذا استطعنا التغلب على بعض الشدة التي تحيط بحياتنا كراشدين وتمكنا من إبطال التركيز، نستطيع أن نبدأ بتقدير قيمة الطفولة بما لها من مباهج وأحزان ومخاوف وعطاءات خاصة. فتقدير الطفولة لا يعني النظر إليها كفترة بريئة سعيدة وإنما فترة مهمة من الحياة يعيشها الأطفال. ومن حق الأطفال أن يكونوا أطفالاً، يستمتعون بالمرات ويعانون آلام طفولة انتهكت بالاستعجال. في النهاية لابد من القول إن الطفولة هي أهم حق من حقوق الإنسان بالنسبة للأطفال.